

المعالم الرئيسية في الهجرة العربية إلى السودان

كان لظهور الإسلام آثار عظيمة ونتائج باهرة في تاريخ العرب . فقد أمدت الرسالة المحمدية الأمة العربية بسياج ديني وفكري ساعدهم على خلق وحدة وقتية عبرت عن نفسها بإنشاء امبراطورية عظيمة الشأن . وتحت راية الإسلام إندفعت الجيوش العربية صوب الشرق والغرب والشمال حتى بلغت أماكن لم تصلها الهجرات العربية التي كانت تنساب عبر الحدود من وقت لآخر . وقد ثبت أن الجزيرة العربية ذات الإمكانيات الغذائية والرعاية المحدودة ، كثيراً ما عانت من ازدياد في عدد سكانها دفعهم في دورات متباعدة للهجرة عبر حدودها طلباً للغذاء والكلأ^(١) . ومن نافلة القول أن أضيف أن بعض القرائن ترجح أن عدداً من هؤلاء المهاجرين قد شقوا طريقهم إلى السودان، إما عبر البحر الأحمر ، أو عن طريق الديار المصرية قبل ظهور الإسلام وهما الطريقان اللذان سلكهما العرب مؤخراً^(٢) .

وقبل أن نغضى في مناقشة العوامل التي ساعدت على هجرة العرب إلى السودان يحسن أن لا نتعرض في شيء من الإيجاز إلى وصف الحالة في البلاد التي تقع جنوب أسوان والتي نسميها تجاوزاً في حديثنا هذا « السودان » .

ففي الوقت الذي ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تلك الديار تتكون أولاً من أرض البجة وهي تشمل تقريباً موطنهم الحالي . وثانياً — ثلاث ممالك تركز نفوذها في وادي النيل بين أسوان وسنار : أما المملكة الأولى نوباتياً أو المريس فسرعان ما اتحدت مع المملكة الثانية المقررة وكونتا مملكة النوبة وعاصمتها دقلا وتعد هذه المملكة حتى كبوشيه جنوباً ، والمملكة الثالثة هي علوه وعاصمتها سوبا^(٣) . أما السكان وخاصة الشماليين والشرقيين منهم فكانوا يمثلون في الأصل ، جنساً أقرب إلى المصريين الأوائل دون سواهم ولكنهم تأثروا في درجات متفاوتة بالقبائل شبه

B. Lewis : *The Arabs in History*, London, 1958, pp. 23-4, 28. (١)

Yusuf Fadl Hasan : *The Arabs and the Eastern Sudan from the seventh to the early sixteenth century*, Ph.D. thesis, London, 1964, pp. 77-80.

Ibid., pp. 63-67.

الزنجية التي نزحت من الجنوب^(١) . وكانت الوثنية الدين الغالب في معتقدات هؤلاء القوم ، ولكن ما أن اكتمل عقد القرن السادس الميلادى حتى توغلت المسيحية بين سكان مملكتى النوبة وعلوه وبين قليل من البجة ممن يسكنون الأطراف . فلما بدأت الفتوحات الإسلامية كانت المسيحية قد ضربت بجذور عميقة وصارت من مقومات النوبة الأساسية^(٢) . ولعل هذه النقطة تفسر لنا شيئاً من الأسباب التي أدت إلى الصدام بين النوبة والمسلمين فانحى مصر بقيادة عمرو بن العاص ؛ فقد إغشاط النوبة على ما لحق باخوانهم في الدين من هزعة على يد المسلمين وأخذوا يتعشرون بالحدود المصرية . صحيح أن النوبة اعتادوا على غزو مصر كلما سنحت لهم الفرصة أو أحسوا ضعفاً في الإدارة القائمة هناك . أما الآن فيبدو أن هذه الهجمات قد أخذت شكلاً مزعجاً مما حدا بالخليفة عمر بن الخطاب أن يأمر واليه على مصر بغزو النوبة^(٣) .

تضطرب المصادر العربية في تحديد عدد الغزوات التي أرسلت لصدهجمات النوبة وطبيعتها . ولكن المرجح أن المسلمين بعثوا حملتين رئيسيتين عدا الغزوات ، الأولى منها في ولاية عمرو بن العاص عام ٦٤١ م ، والثانية في أيام عبد الله بن سعد بن أبي سرح عام ٦٥١^(٤) . وقد وجدت الحملة الأولى مقاومة عنيفة من النوبة الذين اشتهروا باجادة رمى السهام حتى سماعهم العرب « رماة الحديق » . وقد حكى شيخ حميرى ممن حاربوا النوبة فقال : « لقد شهدت النوبة مرتين في ولاية عمرو بن العاص ، فلم أرقوماً أجد في حرب منهم . لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم أين تحب أن أضع سهمى منك ؟ فربما عبث الفتى منا فقال في مكان كذا وكذا فلا يخطئه . . . وخرجوا إلينا

(١) انظر C.G. Seligman : "Some aspects of the Hamitic Problem in the Anglo-Egyptian Sudan", *Journal of Royal Anthropological Institute (J.R.A.I.)*, XLIII, 1913, pp. 593-610 ; A.M. Batrawi. "The racial history of Egypt and Nubia", *J.R.A.I.*, LXXVI, (1946), p. 155 ; U. Monneret de Villard, *Storia della Nubia Cristiana*, Roma, 1938, pp. 53-70.

(٢) J.W. Crowfoot, "Christian Nubia", *Journal of Egyptian Archaeology*, XIII, (1927), p. 142.

(٣) المسعودى : مروج الذهب ، باريس ، ١٨٦١ ، ج ٣ ، ص ٣٨ — ٣٩ .

(٤) ابن عبد الحكم : كتاب فتوح مصر وأخبارها ، ليدين ، ١٩٢٠ ، ص ١٦٩ — ١٧٠ .

ذات يوم فصافونا . نحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف فما قدرنا على معالجتهم رمونا حتى ذهب الأعين . فعددت مائة وخمسين عيناً مفقوعة . فقلنا ما لهؤلاء خير من الصلح ، أن سلبهم لقليل وأن نكابتهم لشديدة . ولكن عمرو بن العاص رفض أن ينهى الحرب^(١) . وظل العرب يجاهدون النوبة حتى عام ٦٥١ حين توغلت جيوش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، في حملتهم الثانية ، حتى دنقلا . وهنالك أشتبك الجيشان في ملحمة رائعة لم تنته إلى نتيجة قاطعة . فقد أبدى النوبيون على عادتهم بسالة فائقة . ولكن ما أن ضربت كنيستهم بالمنجنيق ، الذى لم يعرفوه من قبل ، حتى دخل الرعب في نفوسهم مما اضطر ملكهم قليدروت إلى طلب الصلح^(٢) . وفى رأي أن المسلمين مالوا إلى قبول ذلك الاقتراح بعد أن لاقوا قتالا شديداً وهم بعيدون عن ديارهم . ويشير هذا الاستنتاج نقطة هامة وهى أن المسلمين لم يقصدوا فتح بلاد النوبة بل أرادوا أن يضعوا حداً لهجماتهم .. وكانت النتيجة أن غزاهم دون أن يقضوا على سلطانهم قضاء تاماً . وتؤكد هذه النتيجة الدراسات التفصيلية للروايات المختلفة لمعهد النوبة .

وكان هذا العهد عبارة عن هدنة أمان أو معاهدة غدم إعتداء بتعبير حديث ، يلتزم بها الطرفان ، ويقوم على تبادل المنافع التجارية بين المسلمين والنوبيين . ولعل اشتهار هذا العهد فى المصادر العربية بالقط^(٣) يؤكد هذه الحقيقة . فكلمة بقط — وهو تعبير لاتينى (Pactum) — اشتهر فى الأمبراطورية البيزنطية ، التى كانت مصر جزءاً منها ، تعنى مجموعة الالتزامات المتبادلة وما يتبعها من مدفوعات^(٤) . وهذا ما حدث . فبعد أن جعل عبد الله بن سعد بن أبي سرح أماناً وهدنة جارية بين المسلمين والنوبة عام ٣١ هـ / ٦٥١ ميلادية ، اتفق الطرفان على أن يدفع النوبة أربعائة من أوسط رقيقهم كل عام على أن يتسلموا قجعة ذلك مواداً غذائية وثيراً كما نص العهد على أن يصرح للتجار المسلمين بدخول بلاد النوبة ، محتازين غير

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ٢٣٨ — ٢٣٩ .

(٢) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ١٨٨ ؛ المقرئى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، (الخطط) ، القاهرة ، ١٩٢٢ ، ج ٣ ص ٢٩٠ .

(٣) F. Lokkegaard, "Bakt", *Encyclopaedia of Islam* 2, I, p. 966.

مقيمين ، ويسمح للنوبة بالتجول في مصر لنفس الغرض . هذا أهم ماورد في معاهدة البقط^(١) . وتؤكد اللواد مذهبنا إليه من قبل في أن المسلمين كانوا يسمعون في ذلك الحين لتأمين حدودهم الجنوبية ، وقد وقفوا عرضاً في فتح بلاد النوبة للتجار المسلمين دون أن يعترض طريقهم نوبى^(٢) .

وكما يتوقع فإن النوبة حاولوا التخلص من هذه الالتزامات الجديدة وعبروا عن ذلك أول الأمر بغزو صعيد مصر في أواخر الدولة الأموية ، ولكن محاولاتهم هذه باءت بالفشل^(٣) . وفي عهد الخليفة المهدي العباسي احتج النوبة بأنهم يلاقون صعوبة كبرى في العدد المطلوب من الرقيق عاماً بعد عام . واستجاب المهدي لمطلبهم هذا ففرض عليهم تسليم الرقيق مرة كل ثلاثة أعوام^(٤) . وتفيد بعض المصادر أن هذا التعديل قد تم في عهد الخليفة المعتصم ، فقد ذكرت تلك المصادر أن النوبة قد تكاسلوا في تسليم ما عليهم من بقط ، ويبدو أن الاضطراب الذي ساد مصر في عهد الخليفة المأمون قد شجعهم على عدم الإيفاء بالتزاماتهم ، فأوقف المسلمون ما عليهم من مؤن ، وأخذوا يتعرشون ببلاد النوبة . وناقش ملك النوبة زكريا بن يحنس وابنه جورج الأمر واتفقا على أن يزور الأخير الخليفة المعتصم في بغداد طالباً تخفيف ما على النوبة من التزام^(٥) . وكانت النتيجة شبيهة بالاتفاق الذي تم في عهد المهدي . والمهم في الأمر أن معاهدة البقط الأولى صارت ركناً أساسياً في تكييف العلاقات بين المسلمين والنوبة لمدة ستة قرون دون تغيير جوهرى في مضمونها .

وبالرغم من أن الاتفاق بين المسلمين والنوبة كان يحول دون توغل العرب واستقرارهم في بلاد النوبة إلا أنهم لم يقفوا مكتوفى الأيدي إزاء هذا المنع . فبعد مقتل آخر خلفاء بنى أمية ، مروان بن محمد في بوسير بعصر اتجه أبناء عبد الله

(١) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ١٨٦ : المقرئى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٩٠

— ٢٩٢ .

(٢) لتوضيح معاهدة البقط أنظر : Yusuf Fadl Hasan, op. cit., pp. 82-97.

(٣) Ibid., 98.

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٣٩ .

(٥) ساويروس « ابن المقفع الأشمونى » : تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية المعروف بسير

البيعة المقدسة ج ١ ، مجلد ٢ ، ص ٢٠٢ : المقرئى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٩٥ .

وعبيد الله ومعهما ألفان وربعاً أربعة آلاف من أتباعهما إلى بلاد النوبة بقصد الإقامة فيها حتى يتمكنوا من استرداد ملكهم على رواية اليعقوبى . ويبدو أن ملك النوبة الذى استضافهم كان على علم بانتقال الأمر من بنى أمية إلى بنى العباس ، فلم يتردد فى أن يطلب منهم الخروج من دياره . وهددهم قائلاً « إن السودان كثير عددهم قليل سلبهم » فلما تبين لعبد الله بن مروان وأتباعه عدااء الملك قرروا الذهاب إلى الجزيرة العربية وبعد عناء كثير فى بلاد البجة واستطاع عبد الله أن يعبر البحر الأحمر من ميناء باضع ومعه حوالى أربعين أو خمسين من أتباعه ^(١) وبالرغم من أن هؤلاء الهاربين السياسيين لم يستطيعوا البقاء فى بلاد النوبة إلا أن الطريق الذى سلكوه شهد هجرات كثيرة فى القرون اللاحقة . ومنذ عهد مبكر أخذ العرب يتدفقون نحو السودان .

ففى الوقت الذى تدمر فيه النوبة مما يدفعون من رقيق لبيت المال ، اشتكى ملكهم للخليفة المأمون ، من بعض الأعراب لشراهم أراضى رعاياه فى المنطقة الواقعة بين أسوان وبجراس — فرص ^(٢) . وهى منطقة لا يجوز للعرب الاستقرار فيها حسب منطوق معاهدة البقط . ولم تغد شكوى الملك شيئاً وظل للملاك العرب فى مكانهم . فلما زار الرحالة الفاطمى ابن سليم الأسوانى تلك المنطقة سنة ٩٦٩ وجد أن كثيراً منهم قد اختلطوا بالنوبة إلى درجة أن عدداً منهم قد نسوا اللسان العربى ^(٣) .

لم تكن مصر هى الطريق الوحيد الذى دخل منه العرب إلى السودان . فقد توغلت جماعات أخرى منذ السنوات الأولى للإمبراطورية الإسلامية عن طريق البحر الأحمر . فقد ذكر المؤرخ الطبرى أن الصحابى أبا محجن الثقفى قد غرب إلى ميناء باضع (بالقرب من عقيق) سنة ١٦ هـ / ٦٣٧ م ^(٤) . وذكر أن الخليفة أبابكر

(١) اليعقوبى : تاريخ ابن واضح ، ليدن ، ١٨٨٣ ج ٢ ، ٤١٥ — ٤١٦ ؛ البلاذرى : أنساب الأشراف : مخطوط مصور ، دار الكتب المصرية ، تاريخ ٧٨٥٦ ، القاهرة ، ج ٨ ، ورقات ٥٠٠ — ٥٠٣ ؛ ابن هب ربه : العقد الفريد ، القاهرة ، ١٩٤٢ ، ج ٤ ، ص ٤٧٠ — ٤٧٤ ؛ ساويرس : نفس المصدر ، ج ١ مجلد ٢ ، ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٢) المسعودى : نفس المصدر ، ج ٣ ص ٤٢ — ٤٣ .

(٣) المقرئى : الخطوط ، ج ٣ ، ٢٥٢ — ٢٥٣ .

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ليدن ، ١٨٧٩ ، ج ١ ، ص ٢٤٧٩ — ٢٤٨٠ .

الصدیق قد نفی جماعة من الأعراب إلى منطقة عیداب^(١) . وفي ذلك العهد المبكر حدثت اشتباكات بين القراصنة الأحباش والمسلمین . فقد هاجم الأولون میناء جده ، فأرسل الخليفة عمر بن الخطاب حملة مكونة من خمس سفن لتأديبهم^(٢) . وكرر الأحباش هجماتهم في خلافة ساجان بن عبد الملك الذي أمر باحتلال مركزهم وهو يتكون من مجموعة جزر دهلک ، لیضع حداً لنشاطهم^(٣) . وبذلك يكون هذا الاحتلال بمثابة رأس الجسر للنفوذ العربی فی الساحل العربی . وقد اتخذ الأمويون ومن بعدهم العباسيون دهلک هذه منفی للعناصر العربية غير المرغوب فيها ، وكان من بین هؤلاء بعض الشعراء^(٤) . ولا أريد أن أبالغ فی أهمية هذا الاتصال ، فدهلک هذه (أو مصوع) ، میناء الجزء الشمالی من الحبشة ، وباضع وعیداب مدخلان رئيسيان لأرض البجة والممالك المسيحية . وفوق هذا كان التجار العرب یمارسون نشاطهم الذي ورثوه عن أجدادهم دون توقف .

وفي الربع الأول من القرن الثامن الميلادی أخذ البجة یكثرلون أذیة سكان صعيد مصر . فأرسل عبید الله بن الحبحاج ، عامل الخراج على مصر ، حملة انتصرت عليهم . وعلى أثرها فرض المسلمون على البجة أن يدفعوا سنوياً ثلاثمائة من الأبل ، وألا یقتدوا على المسلمين أو رعایهم ، ولكن أعطوهم حق التجول فی مصر^(٥) . هذه المعاهدة شأنها فی ذلك كماهدة البقط ، ساعدت على وضع حد لهجمات البجة ، كما فتحت بلادهم للنفوذ العربی ، وأدت إلى خلق نوع من الاطمئنان هیأ سفر كثير من الحجاج إلى الحجاز عن طريق بلاد البجة . وفي سنة ٨١٤ سافر إبراهيم القفطی

(١) البكری (عبد الله بن عبد العزيز) : الممالك والمسالك (مخطوط ، المتحف البريطاني ، لندن) ، ص ١٠ ب .

(٢) الطبری : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٥٩٥ ؛

A. Kammerer : La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arable depuis l'antiquité, Le Caire 1929, I, Part III, p 322.

(٣) الفاكهي (محمد بن اسحاق) : كتاب المتقی فی أخبار أم القرى ، نشر وستنفلد

لايبريق ، ١٨٥٩ ، ج ٢ ، ص ٤٤ ؛ القنأی (أحمد بن محمد) : كتاب الجواهر الحسان فی تاریخ الحبشان ، بولاق ١٣١٥ ، ص ١٥ .

(٤) الطبری : نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٥٥ ، ج ٢ ص ١٧٧٧ ؛ أبو الفرج الأصبهانی

كتاب الأغاني ، القاهرة ، ١٩٢٧ ، ج ٤ ، ص ٤٥ ، ٢٣٩ ، ج ٧ ، ص ٥٦ .

(٥) ابن عبد الحکم ، نفس المصدر ، ص ١٨٩ .

حاکم قفط فی جماعة من أهله علی نفس الطريق . وكان ابراهيم هذا خيراً بـ تلك الدیار علیا بمسالکها ، فتطير البجة منه وخافوا علی سلامة وطنهم ، فأغروا زعيمهم محاً لیسمح لهم بقتله^(١) . وانتهت القصة بقتل ابراهيم هذا وجماعته فی ظروف غامضة ولم یسلم منهم إلا صبی استطاع أن یحمل الخبر لأهله فی قفط . فکتم أولئك الأمر حتى قدم محاً واتباعه من البجة علی عادتهم للتجارة ، فاعمل أهل قفط السیف فیهم . ورد البجة الصاع صاعین فهاجموا قفط وقتلوا عدداً من بنیها وسبوا سبعائة من سكانها . وظل أهل قفط یطلبون العون من الوالی ثمانية سنوات حسوما ولكن دون مجیب . وجاء العون من حکم النابغی من قیس عیلان الی تسکن الحوف فی مصر ، وكان رجلاً ثریاً فاضلاً محباً للجهاد فی سبیل الله . فخرج حکم فی ألف من رجاله ودام علی حرب البجة ثلاث سنوات حتى یسترد ما أسروه وزاد علیه^(٢) . وتطوع هذا العدد من العرب ونزوحه من الحوف ، وهی من أكثر الأماكن رخاءاً فی مصر ، یدل علی أن هناك دوافع عميقة حدث بهم لیقوموا لنصرة أهل قفط ، ویحاربوا البجة . وحقیقة الأمر أن الصلة بین العالم الإسلامی والسودان لم تبلغ درجة من الأهمية ، ولم یكثر ذکر تلك الصلات فی المصادر العربیة إلا بعد أن ساء حال العرب فی الإمبراطوریة الإسلامیة عامة ، وفی مصر خاصة . وشرح هذه النقطة یتطلب شیئاً من الاستطراد .

ظل العرب طوال عهد الراشدين والعصر الأموی والحقب الأولى من الدولة العباسیة یتکونون أقلیة مصطفاة فی مصر . فهم یتنلون طبقة القتالة والأرستقراطية الحاكمة . وكانوا یتسلمون رواتب سخیة ویدفعون ضرائب بسیطة ، وحتى یحافظوا علی مقدرتهم الحربیة حرم علیهم اقتناء الأرضی والاشتغال بالفلاحة ، ومن ثم ظلوا یتسكنون المدن . ولكن فی أواخر الدولة الأمویة بدأت جماعات منهم تحترف الزراعة وتحفظ بالمصریین ، وكان ذاك بداية للاستعرا ب وانتشار الإسلام فی مصر^(٣) .

یصعب حصر العرب الذین دخلوا مصر ولكن الأرقام الی توردها المصادر

(١) ابن حوقل : نفس المصدر ، ٥١ - ٥٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١ - ٥٢ .

(٣) Yusuf Fadi Hasan, op. cit., pp. 103-4.

(٣)

العربية قد تفيدنا في رسم صورة تقديرية . إذ تذكر المصادر أن عمرو بن العاص غزا مصر في ثلاثة آلاف مقاتل ، وأمدّه الزبير بن العوام بخمسة آلاف وفي رواية أخرى بإثنى عشر ألفاً . وأن عبد الله بن سعد بن أبي سرح غزا النوبة في عشرين ألف مقاتل ! وقد بلغ عدد العرب المقيمين في الفسطاط في خلافة معاوية بن أبي سفيان أربعين ألفاً ، وفي اسكندرية عشرين ألفاً آخر^(١) .

واستمر العرب يفتدون لمصر لأسباب مختلفة منها كثرة تغيير الولاة الذين اعتادوا على اصطحاب أفراد من قبائلهم ليشدوا من أزرهم في وظائفهم الجديدة . وقد ذكر أن عدد من تبع بعض الولاة بلغ ست آلاف أو عشرة أو عشرين ألفاً^(٢) . فإذا تذكرنا أن ثلاثة وثمانين والياً تعاقبوا على مصر بين ولاية عمرو بن العاص الثانية وولاية عنبسة بن إسحاق الضبي آخر وال عربي تكونت لدينا فكرة عن عدد من هاجر في مثل تلك الأحوال : كما شجع الأمويون هجرة القبائل القيسية ليقبلوا من نفوذ القبائل اليمنية . وقد استقرت جماعات من هؤلاء في مصر حيث مارست الزراعة^(٣) .

وبسقوط الدولة الأموية انتهت دولة العرب وقامت الدولة العباسية على تأييد الموالى وبعض العرب ، ومن ثم حاول العباسيون استرضاء تلك العناصر ، وحاولوا في نفس الوقت أن يبرهنوا على عروبتهم في كثير من أعمالهم . غير أن عوامل جديدة حالت دون ذلك ، فقد اعتمدت الدولة على الجند الخرساني وهم مزيج من الفرس والعرب فقل اعتمادها على المقاتلة العرب ، وبذلك حرم العرب من كثير من امتيازاتهم . فأصبحت الرواتب مثلاً تدفع للمقاتلة من العرب فقط ، لا للعرب جميعهم كما كان الحال في أول الأمر ، وحتى هؤلاء فقدوا وظائفهم تدريجياً واحتلتها الجنود الأتراك^(٤) . فلما أحس العرب بهذا التغيير أخذوا يحترفون الفلاحة ، وظل

(١) المقرئ : المخطوط ، ج ٣ ، ص ١٦١ ، ٢٦٠ ؛ البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب (البيان) ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٩٥ .

(٢) S. Lane-Poole : *A History of Egypt in the Middle Ages*, London, 1901, p. 29. (٢)

(٣) المقرئ : البيان ، ص ٩٨ — ٩٩ ، ٦٦ — ٦٨ .

B. Lewis, *op. cit.*, pp. 80, 84, 92-3.

(٤)

البدو على بداوتهم . ولكن جزءاً آخر ممن لم يعجبه الوضع آثر الهجرة لأطراف الإمبراطورية الواسعة . ومنذ ذلك الحين صارت كلمة عرب أو أعراب تطلق في الغالب على البدو منهم .

أبدى العرب في مصر استياءهم الشديد لهذا التحول في سياسة الدولة . وكثرت ثوراتهم في أول قرن للدولة العباسية . ففي سنة ٧٨٢ ثار دحيه وأعلن نفسه خليفة أموياً على صعيد مصر وأيده كثير من العرب . ولم تفلح الحكومة المركزية في إخماد ثورته إلا بعد مجهود جبار عام ٧٨٦^(١) . وفي عام ٨٠٢ أعلنت قبائل قيس العيصان ورفضت دفع الخراج^(٢) . وقد تبع هذه الاضطرابات حروب كثيرة بين هؤلاء العرب الذين أرادوا التمتع بخصبات الأرض التي يفلحونها دون دفع خراج عنها . ولم تهدأ الأحوال في مصر إلا بقدوم الجيش الحراساني بقيادة عبد الله بن طاهر سنة ٨٢٦ . فما أن بارح مصر إلا رفع العرب راية العيصان مرة ثانية . وفي سنة ٨٣١ أرسل الخليفة المأمون أخاه المعتصم بأربعة آلاف من الجند الأتراك ليفرقوا العرب الذين حاصروا القسطنطينية . ولم يمض عام حتى اضطر الخليفة المباشرة الأمر بنفسه وكبح جماح العصاة . وغاية ما هناك أن هذه الحروب قد بعدت الشقة بين العرب وحكام مصر^(٣) .

فلما آل الأمر إلى الخليفة المعتصم كتب إلى واليه بمصر يأمره بإسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم . ففعل ذلك^(٤) . ويعد هذا القرار نقطة تحول خطيرة في تاريخ العرب في مصر . إذ يعنى أن الدولة قد زهدت في خدمة المقاتلة من الأعراب واستبدلتهم بالجند التركي .

عرف العالم الإسلامي الترك منذ العهد الأموي ، ولكن المعتصم أكثر من

(١) ابن تغرى بردى (أبو الحسن يوسف) : النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٩٢٩ ، ج ٢ ص ٤٩ ، ٥٥ ، ٦٠ - ٦١ ؛ المقرئى : الخطط (ط. القاهرة) ج ١ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ .

(٢) الكندي : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ليدن ، ١٩١٢ ، ص ٤٣ ؛ المقرئى ، الخطط ج ١ ، ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٣) المقرئى : الخطط : ج ١ ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(٤) ابن تغرى بردى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

استعمالهم ، إذ اتخذهم حرساً له ، وعهد لهم بإخاد ثورة قيس في مصر قبل أن يصبح خليفة . فلما آل الأمر إليه اعتمد عليهم كلياً لأسباب لا محل لذكرها هنا ؛ ولكن من المؤكد أن مهارتهم الحربية كانت تفوق مقدرة المقاتلة من العرب والجنود الحرساني في ذلك الحين^(١) . ومنذ ذلك التاريخ كثر استعمال الجنود الأتراك ، والجنود النوبيون بدرجة أقل .

ولم يرض قرار المعتصم دون احتجاج صارخ من العرب في مصر ، فقد ثار يحيى بن الوزير الجروى في جمع من لخم وجذام وأعلنوا العصيان حتى ترد لهم حقوقهم المنتصبة على حد تعبيرهم^(٢) ، ولكن ثورتهم هذه لم تقدر شيئاً : فقد اكتشفوا أنهم قدودا مصدر رزق هام وبقي أمامهم أحد أمرين ، إما أن يستقروا ويختلطوا بالمصريين أو ينزحوا نحو صعيد مصر بعيداً عن سلطة الوالى ، حيث تسهل الثورة ضد الحكومة أياً كانت . ولعل مما زاد من حقن العرب أن الولاة بعد سنة ٨٥٢ صاروا زكاً .

وباختصار فإن السياسة التي اختطها المعتصم في تجنيد الترك تعتبر في نظرى العامل الأساسى الذى شجع العرب على الهجرة إلى السودان . فكلما زادت قبضة الأتراك على الحكومة والجيش في مصر ، اضطرب العرب إلى الهجرة نحو السودان . وقد بلغت قبضة الأتراك القمة في العهد المملوكى .

والرأى عندى أن العرب منذ أوائل القرن الثالث الهجرى أخذوا يدخلوا السودان في مجموعات صغيرة دون أن تسترعى انتباه أحد ، أو يسجل تفاصيلها التاريخ . وقد دفعتهم لذلك الأخبار التي سمعوها من التجار عن المراعى الشاسعة التي تقع جنوب بلاد النوبة . قد يقال إن الحدود بين مصر وبلاد النوبة يحرسها صاحب الجبل أو حاكم الرئيس الذى يقطن بجراش ، والذى يحول دون دخول أى شخص غير مصرح له بذلك^(٣) . ولكن لنذكر أن هذه النقطة من الحدود يسهل تفاديها .

١ انظر Yusuf Fadl Hasan, *op cit.*, p. 109.

(٢) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٤ ؛ ابن تغرى بردى . نفس المصدر ، ج ١ ،

ص ٢٢٣ .

(٣) أبو صالح الأرمى : تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمى ، أكسفورد ، ١٨٩٤ ، ص ١٢٠ ،

المقرئى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٥٣ .

ولقد استغل البجة انشغال حكام مصر في أوائل القرن الثالث الهجري بالفتن الداخلية وبدأوا يغزون الصعيد مرة أخرى . فبعث الخليفة المعتمد ، عبد الله ابن الجهم الذي هزم رئيسهم كنون بن عبد العزيز وفرض عليهم صلحاً لا يختلف في مضمونه عن عهد عبد الله بن الحبحاب معهم ، بل يؤكد امتداد نفوذ المسلمين في تلك الجهة . تنص المعاهدة باختصار على أن تكون بلاد البجة ومن فيها من أسوان إلى تخوم باضع ومصوع ملكاً للخليفة . وأن يكون كنون بن عبد العزيز نائباً عنه ، وأن تدفع البجة مائة جبل أو ثلاثمائة دينار لبيت المال وألا يعترض البجة المسلمين الذين يسافرون أو يستقرون في بلادهم بأذى . وألا يهدموا المساجد التي بناها المسلمون وأن يسمحوا بمال بيت المال بجمع الصدقات من أسلم . وأكدت المعاهدة السماح للتجار البجة بالدخول في مصر^(١) . لا أريد أن أطيل في مناقشة هذه المعاهدة ، لكن من الواضح أنها وضعت الأساس لتجول المسلمين واستقرارهم في حرية تامة (أكثر من ذي قبل) . والإشارة إلى وجود مساجد والحديث عن جمع الصدقة يدلان على أن العرب قد دخلوا في أعداد كبيرة ساعدت على نشر الإسلام . ثم أن اسم رئيسهم كنون بن عبد العزيز يدل على أثر عربي . والجدير بالذكر أن تلك المعاهدة قد ترجمها إلى البجاوية عريان أحدهما من جدة والآخر من قبيلة قريش ، ولا بد أنهما عاشا في تلك الديار حتى تعلمنا تلك اللغة^(٢) .

وفي أثناء حملة عبد الله بن الجهم تسامع الناس بوجود الزمرد والذهب في أرض البجة^(٣) ، فتدفق الناس في أعداد كبيرة زهداً في الحياة في مصر ورغبة في الثراء السريع .

ولا بد من وقفة هنا لنبين معالم هذه الهجرة ، فبالرغم من أن سياسة الدولة لم تعد تغري كثيراً من العرب بالبقاء في مصر ، إلا أن أسباباً اقتصادية بحثة دفعت بكثير من العرب ورعاياهم للتوغل في السودان وهي باختصار تجارة الرقيق ، والعمل بالتعدين في الصحراء الشرقية ، والاشتغال بالتجارة الهندية ونقل الحبيج وما صاحب الأخيران من تطوير الموانئ .

(١) المقرئى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٥ .

(٢) المقرئى : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٧٣ .

(٣) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٥٣ .

ربما كان العامل التجاري هو السبب الرئيسي في توغل العرب في المقرة وعلوه خلال القرون الإسلامية الأولى ، فكانوا يجلبون المواد الغذائية والثياب والخزف ويعودون بريش النعام والماشي والرقيق^(١) . وكانت تجارة الرقيق تحتل جزءاً مهماً من ذلك النشاط ، وقد تزايد الطلب للرقيق في العالم الإسلامي بعد أن قل الوارد من السبي . وكان جزء من هذا الرقيق يملأ جوارى أو حاضنات وبعضهم يعمل خدماً وعمالاً^(٢) . غير أن الأغلبية كانت تتخذ جنداً ، خاصة في مصر بعد عهد أحمد ابن طولون الذي عين أربعين ألفاً منهم في جيشه^(٣) ، وازداد هذا العدد أيام الأخشيديين والفاطميين^(٤) . ولم يكن هذا الطلب وفقاً على مصر وحدها ، بل كانت الحجاز سوقاً هاماً^(٥) . وذكر الرحالة ابن بطوطة أنه رأى جارية نوبية في بلاط خان التتر في بلاد القرم في أوائل القرن الرابع عشر^(٦) .

أين موطن هؤلاء الرقيق ؟ من المرجح عندى أن الجزء الأكبر كان يجلب من البلاد التي تقع جنوب المقرة وعلوه ، أى الجزء الغربي من بلاد السودان بمعناها العام . وكان التجار العرب يعتمدون على التجار المحليين في اعتناء الرقيق^(٧) .

ويهمنا أن نذكر في هذا المقام أن تجارة الرقيق سهلت الهجرة العربية لسببين : أولاً : بالرغم من أن معظم هؤلاء العبيد كانوا يجلبون من بلاد السودان بمعناها العام إلا أن الجزء الذي اشتري من المقرة وعلوه قد حرم تلك البلاد من العنصر الشاب فيها (وهو النوع المرغوب فيه) ومن ثم قلل بمرور الزمن من فرصتها لتعول دون توغل العرب مستقبلاً . ثانياً : ساعد توغل التجار المسلمين في زيادة معرفة

(١) ناصري خسرو : سفر نامه ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٤١ ، ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٨٤ ، ص ٧٦ . Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, p. 116.
(٢) ابن بطلان : رسالة في شرى الرقيق وتقليب العبيد ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٣٧١ - ٣٧٨ .

(٣) المقرئى : المخطط (ط القاهرة ، ١٨٥٣) ج ١ ص ٣١٥ .

(٤) المقرئى : المخطط : ج ٢ ، ص ٤٤ ، ابن ميسر : أخبار مصر ، القاهرة ١٩١٩ ،

ج ٢ ص ٢٤ - ٢٥ ، Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, pp. 119-126 .

(٥) Ibid., pp. 126-7 .

(٦) ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار ، باريس ١٨٩٣ ، ج ٢ ص ٣٩٤ .

(٧) أنظر Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, pp. 121-123 .

العرب بتلك البلاد : مسالكها ومراعيها . ولا شك أن هذه المعرفة أفادت المهاجرين كثيراً وفتحت أمامهم عوالم جديدة . وعلى ضوء ماحدث مؤخراً يبدو جلياً أن التجار قد عملوا بعد أن وسعوا نطاق التجارة ، كدعاة ومبشرين للإسلام ، وأنهم في توغلهم وترحالهم الكثير من منطقة لأخرى داخل السودان قد حملوا الدعوة الإسلامية إلى تلك المناطق .

كان لاكتشاف الزمرد والذهب في الصحراء الشرقية أمر أخاذ على نفوس العرب في مصر . فاندفعت جماعات منهم نحو تلك المنطقة التي أسموها « أرض المعدن » في أوائل القرن التاسع الميلادي وكان مركزهم الرئيسي وادى العلاقي . ولكن البجة الذين لم يشتهروا بالعمل بالتعدين طردوا العرب وقتلوا جماعة منهم ، وامتنعوا عن دفع الجزية وهاجموا الصعيد . وبعد تردد من حكومة بغداد ، خوفاً من البجة ومخبرائهم الموحشة ، عهد الخليفة المتوكل لمحمد بن عبد الله القمي بمحاربتهم (١) . واستعد القمي إستعداداً كاملاً ويزعم الطبري أن القمي سار في عشرين ألف مقاتل من العرب الذين طردهم البجة من أرض المعدن . ولا شك أن هذا عدداً كبيراً لا تحتمله حملة صحراوية (٢) : ومن المرجح أن عددهم ثلاثة ألف مقاتل من قبائل ربيعة ، ومضر وعين بالتساوي كما ذكر ابن حوقل (٣) . وقد أرسل القمي الأطعمة في سبع سفن أبحرت حتى مكان بالقرب من عيذاب . أما الجيش فبعد أن اخترق أرض المعدن ، قابله على بابا زعيم البجة الذي جعل يناوش المسلمين حتى ينفذ زادهم ويأخذهم دون مجهود . فلما علم البجة بوصول المراكب يتسوا من هلاك جيش القمي وبدأوا القتال . ولجأ المسلمون إلى خدعة ساعدتهم على النصر ، فقد ربطوا عدداً من الأجراس على رقاب الخيل فلما سمعتها إبل البجة وكانت ذعرة ألفت من تحمل وولت لا تلوى على شيء ، فتم النصر للمسلمين . والتزم البجة بدفع الجزية والسماح للعرب بالتعدين . وتأكيذاً لهذا الاتفاق اصطحب القمي على بابا لزيارة الخليفة ببغداد وتقديم فروض الطاعة (٤) .

(١) الطبري : نفس المصدر : ج ٣ ص ١٤٢٩ .

(٢) المصدر السابق : ج ٣ ص ١٤٢١ .

(٣) ابن حوقل : نفس المصدر ص ٥٣ .

(٤) الطبري : نفس المصدر ج ٣ ص ١٤٢ والبلاذري : نفس المصدر : ص ٢٣٩ ؛

ابن حوقل : نفس المصدر ص ٥٣ .

وما أن استتب الأمن حتى تقاطر العرب نحو أرض المعدن زرافات ووحدانا .
 فجاءت قبائل من مضر وربيعة بن حنيفة من نجد ، على سبيل المثال لالحصر ، وسكنت
 وادي العلاقي^(١) . ولعل خير مثال للهجرة العربية في تلك الظروف نشاط عبد الله
 ابن الحميد العمري^(٢) ، الذي قدم مصر سنة ٨٥٥ ومنها اتجه نحو أرض المعدن بعد
 أن اشترى رقيقاً وحط رحاله بالقرب من معدن لمصر ، ثم فارقهم أثر خلاف لمعدن
 الشنكة ، الذي يظن أنه بالقرب من أم نباردي أو وادي هذلي^(٣) ، ولكن
 العمري لم يجد ماء كافياً لعمليات التعدين في ذلك المعدن ، فورد النيل ، ومنعه
 أهله منه شكا في نواياه . فهاجم العمري سكان شنقي ، وهي المنطقة التي تقع بين
 أبي حمد وبربر . وسبي منهم كثيراً وباعهم في أسواق مصر . فكثر ماله ، وزاد
 سلطانه وأخذت القوافل ترد إلى معسكره محملة بالغذاءات . ولكن زعامته لم تدم
 طويلاً إذ دخل في حروب طويلة مع النوبة انتهت بانتهامه . فأثرت هذه الهزيمة على
 موقفه من حلفائه العرب ، فقد اتهمته سعد العشيرة بـ «إزالة قيس هيلان» . وأخيراً
 اضطر العمري ليتجه شمالاً وأن يعسكر بالقرب من أسوان .

فلما بلغ خبره أحمد بن طولون وكان جيشه يتكون من الترك والنوبة ، خافه ،
 وخشى أن يتعاون مع البدو الذين تكثرت ثوراتهم في الصعيد . وقرر أن يباغته ،
 فانتصر العمري على جيش ابن طولون ، وقفل راجعاً إلى أرض المعدن . وهناك
 بسط نفوذه على قبائل جيبينه وربيعة وسعد العشيرة ، فعظم نفوذه واتسعت سلطته
 حتى ذكر أن ستين ألف رجل كانت تعمل في حمل المؤن من أسوان لحلفائه ، عدا
 العير التي تجيء من عيذاب . وفي ذلك الحين فكر ابن طولون في الانتقام ، ولكنه
 آثر السلامة إزاء تهديدات العمري . ومن حسن حظ الطولونيين أن الحلف العربي
 الذي أنشأه العمري في أرض المعدن لم يدم طويلاً ، نتيجة اختلاف بين الحلفاء .

(١) ابن حوقل : المصدر السابق ص ٥٣ ؛ يعقوبي : كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٩١ ،
 ص ٣٣٤ .

(٢) المقرئ : المقي (مخطوط ، المكتبة الوطنية ، باريس ، رقم 2144 - Arabe
 ج ٤ ، أوراق ١٦٤ - ١٦٧ .

U. Monneret de Villard, *op. cit.*, p. 111. (٣)

والسبب المباشر لذلك ، أن إبراهيم الخزومي ، أخو العمري من أمه ، قتلته جماعة من البجة ، فطلب من حلفائهم ربيعة أن تنصفه فرفضت . وآثرت مضر الحيات بينما عاداه بنو هلال وبنو تميم . وأخيراً تمكن العمري في جماعة من أنصاره أن ينتصر عليهم ولكنه لم يمش طويلاً إذ اغتاله غلامان مضرين^(١) .

لا نبالغ إذا قلنا إن العمري قد قارب النجاح عندما أنشأ أول إمارة عربية في شمال السودان . وضرب بنجاحه هذا مثلاً لكثير من المغامرين والراغبين في الهجرة ليعتدوا حذوه . وتعكس الأخبار المفصلة التي سجلها اليعقوبي^(٢) بعد عشرين سنة من موت العمري ازدياد النشاط العربي في أرض المعدن . وقد شمل هذا النشاط التعدين ، والتجارة ، ونقل المؤن .

وقد لعبت قبيلة ربيعة وحلفاؤها دوراً هاماً في انتشار الإسلام والنفوذ العربي في أرض المعدن . فبعد أن حاربت ربيعة العمري ، تحالفوا مع البجة وتزوجوا منهم . واستطاعوا بفضل عادة أهل السودان في ذلك الوقت ، وهو أن يرث ابن بنت السلطان الملك ، أن يسيطروا على زعامة القبائل ومن ثم قوى نفوذهم حتى عم أرض المعدن^(٣) . يؤكد المسعودي أن صاحب المعدن في عام ٩٤٣ م كان بشر بن مروان بن اسحاق ، وكان يركب في ثلاثة آلاف رجل من ربيعة وأحلافها وثلاثين ألفاً من الحداربة وهم مسالمون من سائر البجة^(٤) . واستطاع أحد أحفاد بشر هذا ويدعى أبو المكارم هبة الله أن يساعد الفاطميين في إلقاء القبض على ثائر أموي يسمى أبو ركة ، فخلع عليه الخليفة الحاكم بالله لقب كنز الدولة^(٥) . ومن ذلك الحين صار لقباً تتوارثه الأسرة فاشتهرت ببني الكنز . وكان هذا اللقب تأكيداً وتأييداً لخدمات الأسرة التي امتد نفوذها على أرض المعدن وشمالي المريس : ومنذ ذلك الحين أصبح بنو الكنز قوة عربية محلية لها وزنها .

(١) المقرئزي : المقي ج ٤ ، ص ١٦٤ - ١٦٧ .

(٢) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٣٣٣ - ٣٣٥ .

(٣) Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, p. 141 .

(٤) المسعودي : نفس المصدر ، ج ٣ ص ٣٣ - ٣٤ .

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ليدن ، ١٨٦٢ ، ج ٩ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ؛

المقرئزي : البيان ، ص ٤٦ .

وبمرور الزمن بدأ إنتاج المناجم يقل شيئاً فشيئاً حتى توقف تماماً في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي ، بعد أن غطتها الرمال . ولعل السبب في تدهورها يرجع أولاً لخوف أصحابها من هجمات البجة والإعراب ، ثانياً كان الإنتاج لا يغطي النفقات ومن ثم أخذ العاملون في أرض المعدن يبحثون عن نشاط آخر ، متجهين إلى الداخل (١) .

وتقف الهجرة العربية في بلاد البجة على أرض المعدن ، بل توغلت جنوباً . فقد وجدت آثار مستعمرة عربية عاشت لأكثر من قرن (بين ٨٢٥ — ٩٤١ م) ، في خور بنت على بعد سبعين ميلاً شمال شرق محطة هيا . ومن المرجح أن سكانها كانوا يعملون بتربية الإبل والإتجار فيها (٢) : ولقد لعبت هذه الإبل دوراً هاماً في نقل الحجاج . والبضائع بين الصعيد وموانئ البحر الأحمر وفي أرض المعدن .

* * *

منذ فجر التاريخ ظل البحر الأحمر أحد طريقين تجاريين هامين يربطان الشرق بحوض البحر الأبيض المتوسط . وفي العصر الإسلامي نشأت على ساحله السوداني ثلاثة موانئ ، وهي باضع ، عيذاب وسواكن ، ساهمت كل منها بدرجة متفاوتة في اتساع نطاق التجارة والهجرة العربية . أما باضع التي ورد ذكرها عام ٩٣٧ واندثرت في القرن الحادي عشر ، فقد كانت مركزاً تجارياً هاماً لمنطقة البحر الأحمر ولكنها لم تلعب دوراً كبيراً في التجارة العالمية وسرعان ما طغى عليها نشاط عيذاب الذي عززه الفاطميون (٣) .

كانت الرغبة في السيطرة على التجارة الشرقية التي تسير على الطريق الثاني ، أي طريق الخليج الفارسي ، بغداد ، ثم البحر الأبيض المتوسط جزءاً من معركة الفاطميون ضد أعدائهم العباسيين . ومما شجعهم في نقل هذه التجارة صلاتهم الحسنة

Yusuf Fadl Hasan, *op cit.*, p. 143.

(١)

G.E.R. Sanders and T.R.H. Owen : "Notes on ancient villages in Khor Nubt and Khor Omek", *Sudan Notes and Records*, XXXII, (1951) pp, 326-31 ; H. Glidden, Khor Nubt tombstones, *Kush*, II, (1954), pp. 63-5.

(٢)

Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, pp. 149-152.

(٣)

مع اليمن . فلما جاء الفاطميون إلى الحكم كانت ميناء القانم مستولة عن إرساله الحبوب إلى الحجاز ، وبعد سيطرة الفاطميين على التجارة الشرقية وجدوا أنها لا تصلح كميناء لذلك الغرض . والسبب في ذلك أن كثرة الشعاب المرجانية ، والرياح الموسمية تعوق سير الملاحة التي تتوقف تماماً في الليل . فوجد الفاطميون في ميناء عيذاب العميقة صآلتهم ، فهي أقرب إلى اليمن من القانم ، ومن ثم قصر طول الرحلة بمرأ^(١) وفوق ذلك لا تبعد كثيراً عن جدة ، ميناء الحجاز .

حتى ذلك التاريخ كانت معظم قوافل الحجاج من مصر والمغرب تسافر عن طريق صحراء سيناء ولكن نسبة للجماعات وسنوات الشدة التي بدأت في سنة ١٠٦٧ أيام الخليفة المستنصر والتي أدت إلى خراب ذلك الطريق انتقل الحجاج إلى طريق عيذاب ، وتأكد بقاء ذلك الطريق بعددوم الصليبيين وازدياد نشاطهم بالقرب من سيناء . وظل طريق عيذاب طريق الحجاج الرئيسي لفترة قرنين انتهت سنة ١٢٦٨^(٢) . وفي نهاية القرن الثاني عشر أصبحت عيذاب من أهم الموانئ في العالم الإسلامي ، فكانت ملتقى للسفن التجارية من الهند ، اليمن ، وشرق أفريقيا ، وجدة ومنها تخرج القوافل تحت إشراف الضمان والحمالين من القبائل العربية وقد ورد ذكر أسماء بعضها مثل تميم وبلي^(٣) .

وبعد أن تخلص الممالك الصليبية انتقلت معظم قوافل الحجاج إلى سيناء وظلت القوافل التجارية تواصل نشاطها دون توقف ، ولكن بمرور الزمن قل الأمن في تلك الجهة . ففي سنة ١٢٧٢ م هاجم الملك داؤد ملك النوبة عيذاب^(٤) . ثم كثرت الاختلافات بين القبائل العربية : ففي سنة ١٢٨١ تحاربت رفاعة مع جهينة مما اضطر السلطان للتدخل^(٥) . وفي عام ١٣١٥ هاجم الأعراب قافلة يمانية تحمل هدايا للسلطان محمد قلاوون ، فأمر السلطان بمعاينة المعتدين .

Ibid., pp. 152-156.

(١)

(٢) المقرئزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، لندن ، ١٩٠٧ ، ص ٦٥ - ٧٣ .

(٤) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد والدر الفريد في ما بعد تاريخ ابن العميد ، باريس ، ١٩١٩ ، ج ٢ ، ص ٢٢١ (١ و ٣٧٥) .

(٥) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، بيروت ، ١٩٣٦ ، ج ٧ ، ص ٢٢٦ .

وخرجت حملة مملوكية مكونة من خمسمائة جندي ؛ فسارت إلى عيذاب ، فسواكن ، فجبل كسلا ثم تابعت نهر عطبرة حتى التقت بنهر النيل وعادت إلى القاهرة بعد أن أمضت ستة أشهر دون أن تحقق شيئاً^(١) . قد نتساءل عن الأسباب التي دفعت هؤلاء العربان بهجمة القوافل التجارية . كان هذا الهجوم موجهاً أساساً ضد الممالك وقد تركزت هذه الهجمات في الصعيد كما سنرى . ولا شك أن كثرة الثورات ، والاضطرابات أثرت على سلامة القوافل . وفي آخر الأمر ولأسباب لا محل لذكرها (ولكن بموافقة السلطات الحاكمة) انتقلت التجارة الشرقية إلى جدة . فقلت أهمية عيذاب^(٢) . وانتهت عظمة الميناء السوداني العربي سنة ١٤٢٦ على المرجح ، حين خربها السلطان برسباي انتقاماً من سكانها الذين هاجموا قافلة مصرية في طريقها لمكة^(٣) .

ويتوقف التعدين ، وانتقال طريق قوافل الحجاج ، وتدهور عيذاب واضطراب قوافل التجارة الشرقية ، توقف النشاط الاقتصادي الذي اعتمد عليه كثير من العرب فاضطرت أغليبتهم للسير إلى داخل السودان ، إلا جزءاً بسيطاً ذهب إلى سواكن .

ورد أول ذكر لسواكن سنة ٩٤٥هـ^(٤) وقد استفادت سواكن كثيراً من تدهور باضع أولاً وعيذاب ثانياً : إلا أنها لم ترق لمكانة الثانية ، وفائدتها الكبرى أنها كانت ذات صلة وثيقة بالحجاز كما كانت تربطها طرق كثيرة بالداخل^(٥) . وكان سلطانها عند زيارة ابن بطوطة لها سنة ١٣٣٢ الشريف زيد بن أبي نمي الذي ورث السلطنة عن أخواله البجة ، وكان جيشه مكوناً من البجة ، وجهينة وبني كاهل^(٥) . وقد أورد السخاوي أسماء بعض التجار العرب الذين عملوا في جزيرة سواكن في القرن الخامس عشر^(٦) .

(١) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، مخطوط مصور ، دار الكتب المصرية .

معارف عامة رقم ٥٤٩ ، القاهرة ، ج ٣٠ ، ص ٩٧ - ٩٨ .

Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, pp. 172-175.

(٢) .

(٣) Ibid., pp. 175-6 ; Les Africanus, (al-Hasan b. Leo Muhammad) *The history and the description of Africa*, Hakluyt Society, London, 1958, III, p. 226.

(٤) الهمداني (محمد بن أحمد) : صفة جزيرة العرب ، ليدن ، ١٨٨٤ ، ج ١ ص ٤٠ ،

١٣٣ .

(٥) المقريزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ١٦٠ - ١٦٣ .

(٦) ابن بطوطة نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٦٠ - ١٦٣ .

(٧) السخاوي : الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، القاهرة ، ١٩٣٤ ، ج ٤ ،

ص ١٤٠ ، ٢٣٤ ، ج ٥ ، ص ٢٤٠ ، ج ٦ ، ص ١٤٩ ، ج ١٠ ، ص ١٥٠ .

كل هذه المظاهر لنشاط العرب الاقتصادي كانت بمثابة المراحل الإعدادية التي مهدت للطرق لهجرة العرب وانتشار ثقافتهم . فكل عامل من العوامل الاقتصادية المختلفة ساعد بطريقة الخاصة في فتح البلاد للنفوذ العربي وشجع على الهجرة : هذه الهجرة أصبحت حقيقة ملموسة بعد تدخل المالك الإيجابي في سياسة بلاد النوبة المسيحية ، ونتيجة ضغطهم على الإعراب في مصر .

بالرغم من أن التعمدين ، وقوافل الحج ، والتجارة الشرقية قد فتحت أبواب رزق كثيرة للعرب المستائين من الحياة في مصر إلا أن الصلة بين حكام مصر والعرب كانت في تدهور مستمر فلما آل الأمر إلى الفاطميين حاولوا استرضاء العرب ، خاصة قریش ، حتى يكسبوا تأييدهم ، فرحبوا ببني غمر ، وبني الزبير ، وبني طلحة وبني جعفر الصادق وأسكنوهم في الأثمنوني في بلاد الصعيد ، فاشتهرت تلك الدار باسم بلاد قریش وكان يسكن تلك الديار في بادئ الأمر قوم من جهينة وبل اضطرتهم العساكر الفاطمية للزروح نحو أعلى الصعيد^(١) . وشجع الفاطميون هجرة بني سليم وحلفائهم لمصر لأسباب أخرى فما أن حظ هؤلاء البدو الرحال حتى بدأوا في مضايقة الفلاحين ومهاجمة القوافل فاستحسن الفاطميون نقلهم لشمال أفريقية . فهاجرت أعداد كبيرة من بني سليم وبني هلال إلى برقة ولكن البقية آثرت البقاء وانتشرت حتى صحراء عيذاب^(٢) . وبالرغم من هذه المعاملة العادلة ظل العرب يشعرون بغير سبب واضح . فتنبع الوزير بدر الجمالي قبائل قيس ، فزارة ، سليم ، ثعلبة ، جهينة ، والجمافرة وعمل السيف فيها ، وطرد منها جماعة لبرقة وهرب الآخرون^(٣) . ولم يكتف بذلك بل هاجم بني الكنز الذين كافأهم الحاكم من قبله ، وقتل زعيمهم . ويبدو أنه قصد أن يضع حداً لمحاولاتهم لإنشاء إمارة عربية على حدود مصر الجنوبية^(٤) .

فلما تعلم الأيوبيون مقاليد الحكم ظلت الصلة فائرة بين الطرفين . والملاحظ أن العرب لم يغفروا لحكام مصر الاستمرار في إبعادهم عن السلطة والجيش . فقد

(١) المقریزی : البيان ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٢) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٢٨ ، ٣٠ ، ١٤٢ ؛ ابن الأثير : نفس

المصدر ، ج ٩ ، ص ٤٠ ؛ المقریزی : البيان ، ص ٢٨ .

(٣) ابن ميسر : نفس المصدر ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٤) ساويروس : نفس المصدر ، ج ٤ ، مجلد ٣ ، ص ٢٠١ - ٢٠٥ .

اعتمد الأيوبيون على الكرد والديلم والترك ولم يستفيدوا من العرب إلا نادراً . ومن ثم عبر العرب عن استيائهم كلما أحسوا تراخياً وضعفاً في الدولة ، وقد ثاروا خمس ثورات تركزت كلها في الصعيد . فلما تدهورت الدولة الأيوبية وأصابها التفكك تمكن الجندي التركي أو المماليك ، من السيطرة على مصر وسوريا . وكان هذا التغيير بداية لصراع عنيف بين أغلبية العرب الذين ظلوا على بداوتهم أو بين البداوة والحضر : فقد اعتاد هؤلاء كلما واتتهم الفرصة الهجوم على المجموعات المستقرة دون اعتبار لقانون أو رادع . وزاد حقنهم لما رأوا هؤلاء الرقيق من الترك يسيطرون على دست الحكم ويضيقون الخناق عليهم . وقد صدق حدس الإعراب : فقد ظل المماليك يمثلون دور القوة المحتلة التي لم تتعاطف مع المواطنين كثيراً ، بل ظل كثير منهم يجهلون العربية : ولم تكن نظرة المماليك قاصرة على اعتراض عنصرى بل تشابه استياء سكان المدن والمجموعات المستقرة من البدو^(١) .

عند بداية العهد المملوكي وفي سنة ١٢٥٣ بالتحديد ثارت معظم القبائل العربية ببلاد الصعيد والوجه البحرى ومنعت الخراج . وأعلن قائدها الشريف حصن الدين ثعلب ابن نجم الدين الجعفرى : « نحن أصحاب البلاد . . . ونحن أحق بالملك من المماليك وتوافد مؤيدوه من كل صوب حتى بلغوا اثني عشر ألف فارس وتجاوز عدة الآخرين الإحصاء » . واستطاع السلطان آييك أن يسيطر على الموقف بعد أن هزم الثوار وأسر حصن الدين^(٢) .

واستمر الصراع بين المماليك والأعراب أو العربان كما يسميهم مؤرخو تلك الفترة دون أن يهدأ . فكما فشلت الدولة في قمع تلك الثورات تشجع العربان في عصيانها ، فإذا أصابهم الهزيمة سلكوا طريق من سبقوهم نحو البلاد ذات المراعى الخضراء بعيدين عن سيطرة الحكومة . وظل هذا النسق من الصراع يقل شيئاً فشيئاً حتى نهاية القرن الخامس عشر ؛ ولأستدل لكم على ما أقول اكتبى بأمثلة ثلاث :

ففي سنة ١٢٩٠ م قتل المماليك جماعة من العربان في طوخ وخرقوا آخرين

Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, pp. 200-202.

(١)

(٢) المقرئى : كتاب السلوك في معرفة دول الملوك . القاهرة ، ١٩٣٤ ، ج ١ ، ص

٣٨٦ ، البيان ، ص ٩ - ١٠ ، ٣٨ .

وأخذوا رهائن كثيرة ممن تبقى بعد أن سبوا منهم ألف رجل ، ومائتي حصان وعدداً كبيراً من الأغنام وكميات من الأسلحة^(١) . ولما زاد الضغط المغولي على سوريا فرض المماليك ضرائب كثيرة قابلها الأعراب بالتمرد سنة ١٣٠١ وعاشوا فساداً . قتل المماليك عدداً من القادة وجبوا ما يساوي مليون ونصف مليون درهم عدا ألف بعير وألف شاة . وصادروا كل الأسلحة وكل الخيل . وقابل العربان هذه الجباية بعدم الانصياع للقوانين والتجأوا لقطع الطرق وفرضوا الضرائب على السكان الآخرين . فحاصر المماليك العربان وحاول هؤلاء الإفلات من قبضة الجند المحاصر ولكن دون جدوى ، وأسر المماليك من بينهم ستة آلاف ممن يفلحون أرضهم . وأخيراً عاد إلى البلاد شيء من الهدوء والاستقرار^(٢) .

ثم اشتبكت قبائل عرك مع الدولة سنة ١٣٤٨ واستطاع المماليك هزيمتهم سنة ١٣٥١ بمساعدة بنى هلال . ولكن محمد بن واصل الأحذب شيخ عرك واصل النضال حتى عظم أمره في الصعيد . وفي سنة ١٣٥٣ سافر الأمير سيف الدين شيخو في جيش كبير لمحاربه فطار الخبر وانتشر الملح بين الأعراب ، فقرر البعض الهجرة لبلاد النوبة ، ونوى آخرون الحج بينما أثرت البقية الاختفاء . . . وانضمت إلى الأحذب عرب منفلووط ، والمراغة ، وبنى كلب وجهينة حتى تجاوزت فرسانه عشرة آلاف فارس تحمل السلاح سوى الرحالة المشاة فإنها لا تعد ولا تحصى لكثرتها . وما أن اشتبك الجيشان حتى انهزم الأحذب إلى أسوان . وهنالك انتصر الأحذب في أوائل الأمر فلما تكامل الجيش المملوكي كانت الغلبة لشيخو^(٣) . وتتبع المماليك العربان الذين هربوا ، مسيرة سبعة أيام حتى دخلوا أطراف بلاد الزنج — أى السودان^(٤) . ولما انتهت هذه الحملة لم يبق بدوى واحد بصعيد مصر على حد تعبير المقرئى^(٥) .

(١) بيرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، سنوات ٦٥٦ — ٧٠٩ هـ ، مخطوط ، المتحف البريطاني رقم Add 23325 لندن ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ أ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٣١ أ ؛ المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٩١٤ ، ٩٢٠ — ٩٢٢ ، ٩٢١ .

(٣) المقرئى : السلوك (مخطوط مصور ، دار الكتب المصرية ، تاريخ رقم ٤٥٥ ، القاهرة) ج ٦ ، ص ٦١٩ ب ، ج ٧ ، ص ١٠ — ١٢ ب .

(٤) ابن أياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور بم بولاق ، ١٨٩٨ ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .

(٥) المقرئى : السلوك ، ج ٧ ، ص ١٢ ب .

وفي عام ١٣٩٥ غزا بنو الكنز والأحامدة أسوان بعد أن قتلوا واليها . وأمر السلطان بمعاينة الجناة وطلب من شيخ هواره ، القبيلة البربرية ، أن تساعد العسكر المملوكي ولكن الجيش لم يهتد لهم على أثر^(١) . ومن الملاحظ أن السلطان الظاهر برقوق أمر في سنة ١٣٨٠ بنقل جماعة من هواره من الوجه البحري وإسكانها في الصعيد وبعد سنوات قليلة أصبحوا رؤساء على كل الصعيد ومن فيه من العرب^(٢) .

يتبين لنا مما مضى أن سياسة المماليك لم تترك للعرب فرصة غير الهروب لبلاد النوبة . وفوق ذلك فإن المجاعات المتكررة وموجات الطاعون التي لازمت العهد المملوكي الأول شجعت كثيراً من العرب بالهروب إلى بلاد النوبة خوفاً للموت . وقد حدثت أول هجرة لهذا السبب سنة ١٣٢٤^(٣) . وقد كان لهذه الوباء والمجاعات أثر سيئ على الحالة الاقتصادية العامة وقد صاحب كل ذلك زيادة في الضرائب لمواجهة زحف المغول . ثم إن كثيراً من الأراضي الزراعية أقطعت للمماليك فأصبح من يفلحها أسوأ حالاً مما كانوا عليه من قبل^(٤) . كل هذه الأسباب شجعت العرب على الهجرة للسودان ، كما صاحب كثير منهم الحملات المملوكية التي غزت بلاد النوبة .

ذكرت في مطلع حديثي أن معاهدة البقظ ظلت تنظم العلاقات بين مصر وبلاد النوبة زمناً طويلاً وقد تدهورت هذه الصلات في حالات قليلة أدت إلى مناوشات على الحدود أو حرب محدودة . تمت أول محاولة جادة لغزو بلاد النوبة في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي حيث توغل الأيوبيون حتى أبريم وكانوا يؤملون اتخاذ بلاد النوبة مملكة لهم إذا ساءت الحال في مصر (على رواية ابن الأثير . لكنهم زهدوا

(١) ابن الفرات : نفس المصدر ، ج ٩ ، ص ٤٤٠ — ٤٤١ .

(٢) المقرئزي : البيان ، ص ٥٨ .

(٣) العيني : تاريخ البدر في أوصاف أهل العصر ، مخطوط ، المتحف البريطاني ، رقم Add 22360 لندن ، ص ١٥ ب .

(٤) Ibn Hajjar al 'Asqalani : 'Inba' al-ghumr bi-anba' al-Umr' ed. with an introduction by Hasan Habashi, Ph. D. The-
sis, London, 1954, I, 151.

في تلك الغامرة لما تأكد لهم فقر بلاد النوبة^(١) . أما المحاولة الثانية فقد تمت في عهد المماليك .

ذكرت كيف أدت ثورات العربان في صعيد مصر والصحرَاء الشرقية إلى اضطراب سير القوافل التجارية فاضطر السلطان بيبرس لتأمين تلك الطرق ومد نفوذه حتى ميناء سواكن^(٢) وأحس داود ملك النوبة أن المماليك قد قصدوا فرض حصار على الممالك المسيحية وحرمانها من الاتصال بالعالم الخارجى عن طريق البحر الأحمر . وعبر عن استيائه هذا بغزو الصعيد وتخريب عيذاب سنة ١٢٧٢^(٣) . وبينما كان السلطان بيبرس يعد العدة لتأديب ملك النوبة وصله أمير نوبى يسمى شكندة وادعى أن الملك داود قد اغتصب العرش منه^(٤) . فكتب السلطان قضيته وبعثه مع الجيش الغازى سنة ١٢٧٦ .

كانت مهمة الجيش المملوكى ومن تبعه من عربان الوجه القبلى غزو بلاد النوبة ووضع شكندة على عرشه . فلما سارت الحملة واجهتها مقاومة عنيفة طوال رحلتها حتى التقت بالملك داود بالقرب من دنقلا وهزمته . وبعد أن تابع المماليك فلول جيش داود لثلاثة أيام عادوا إلى دنقلا وتوجوا شكندة ملكاً على النوبة . وقبل شكندة الشروط التى أملاها الجيش الفاتح . وأهمها أن يصبح شكندة تابعاً للسلطان ونائباً عنه فى حكم بلاد النوبة ، وأن يسلم نصف دخل بلاده للسلطان وأن يدفع كل بالغ دينارين جزية إذا ما بقى على النصرانية ، وتعهد سكان النوبة بطاعة ملكهم ما طاع سلطان مصر . وتنص المعاهدة على أن يمنع العربان من البقاء فى بلاد النوبة وأن يرسل الملك من يجده منهم لسلطان مصر . هذه المادة تصور مدى الهلع الذى أصاب

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، القاهرة ، ١٨٧٠ ، ج ١ ، ص ٢٠٩ ؛ ابن الأثير : نفس المصدر ، ج ١١ ، ص ٢٥٤ .

(٢) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز خويطر رسالة خطية ، جامعة لندن ، ١٩٦٠ ، ج ١ ، ص ٢٨٥ — ٢٨٦ ؛ شافى بن على بن عباس كتاب المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية (مخطوط دار الكتب الوطنية ، باريس رقم ١٦٥٦ Arabe) ، ص ١٨٣ — ٨٣ ب .

(٣) مفضل بن أبى الفضائل : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢١١ .

(٤) ابن الفرات : نفس المصدر ، ج ٧ ، ص ٤٥ — ٤٦ .

للمالِك من العربان . ومن الجدير بالذكر أن الجيش عاد إلى مصر يحمل عدداً من الأمراء كرهاً ثم استغلوا في الوقت المناسب للتدخل في شئون النوبة^(١) .

وبإيجاز فإن هذه الحملة حققت فتح بلاد النوبة « فتحاً حقيقياً » .

أولاً — لم تعد بلاد النوبة مستقلة ، منذ ذلك التاريخ . ثانياً — أعطت هذه الخلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة الفرص للتدخل في شئون النوبة من وقت لآخر ومن ثم كانت سياسة المالِك ترمي إلى جعل بلاد النوبة دولة تابعة . وقد ساعدت هذه السياسة على انتشار الإسلام والإسراع بالاستعرا ب الذي بدأ منذ زمن طويل في بلاد الرئيس كما ساعدت على دخول كثير من العربان مع الجيوش الفاتحة فاستقروا في بلاد النوبة على غير ما أراد بييرس ، وتزوجوا من أهلها ومن أسرها الحاكمة حتى ملكوا زمام الأمر في أوائل القرن الرابع عشر .

فلما مات شكندة سنة ١٢٧٧ اختلف الأمراء النوبيون فيمن يخلفه ، وأخيراً أقر المالِك شمامون . ولكنه سرعان ما استبد بالأمر ورفض دفع الجزية ، فأرسل السلطان منصور قلاوون حملة كبيرة سنة ١٢٨٧ لخلعه^(٢) ، وقد اشترك فيها عدا الجند الرسمي ، كثير من العربان مثل أولاد أبي بكر ، وأولاد عمر ، وأولاد شريف وأولاد شيان ، وأولاد الكنز وبنو هلال . فلما هزم شمامون عند دنقلة تقهقر نحو الجنوب . وعاد الجيش المملوكي لمصر بعد أن توج ملكاً جديداً ، فما أن غاب الجيش المملوكي وراء الأفق حتى ظهر شمامون واسترد ملكه . وتدخل السلطان مرة ثانية وأرسل جيشاً كبيراً اشترك فيه أربعون ألفاً من عربان الوجه القبلي والبحري . وقد نشك في صحة هذا العدد ولكنه مهما كان ، فهو دليل على أن من اشترك من الأعراب كان كبيراً جداً . وانتصر المالِك وتكررت مراوغة شمامون مرة ثانية وثالثة وأخيراً نجح في البقاء على العرش برضاء سلاطين مصر إلى نهاية القرن الثالث عشر

(١) ابن الفرات : نفس المصدر ج ٧ ص ٤٦ — ٤٧ ؛ مفضل بن أبي الفضائل : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ؛ النويري : نفس المصدر ج ٢٨ ورقة ٢٥٩ .

(٢) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والمعصور في سيرة الملك المنصور « تشريف » القاهرة ١٩٦١ ص ١٥٤ ، ١٤٣ — ١٤٤ .

تقريباً^(١). وفي سنة ١٣٠٤ أرسل المماليك ملكاً آخر على بلاد النوبة وخلفه أخاه كرنبس عام ٣١١^(٢)؛ فلما أن توطد مركزه حتى استقل بالأمر وأرسل المماليك جيشاً آخر يقيمه حفيد الملك داود الأمير سيف الدين عبد الله برشبو الذي اعتنق الإسلام أثناء وجوده في القاهرة. فلما سمع للملك كرنبس بذلك أسرع بإرسال ابن أخته كنز الدولة نصر، حفيد بنى الكنز، للأبواب السلطانية قائلاً: «إن كان يقصد مولانا السلطان بأن يولى البلاد لمسلم فهذا مسلم وهو ابن اختي والملك ينقل إليه من بعدى» فرفض السلطان ذلك الطلب خوفاً من ازدياد نفوذ بنى الكنز وأنصارهم. وتوج سيف الدين عبد الله برشبو أول ملك مسلم على بلاد النوبة المسيحية عام ١٣١٧^(٣)، وأرخ لهذا الحدث العظيم باتخاذ كنيسة دقلا مسجداً. ولكن عهده لم يطل، إذ ثار عليه النوبيون غالباً بإيعاز من كنز الدولة. وبعد حروب طويلة بين المماليك والقوى المحلية تم الأمر لسكنز الدولة سنة ١٣٢٣. وقد لخص النويرى وهو ممن عاصروا تلك الأحداث تلك الظروف قائلاً «فاجتمع أهل النوبة على كنز الدولة وملكوهم عليهم فملك البلاد حينئذ، ولبس تاج الملك، واشتغل بالملك وضم إليه العرب واستعان بهم على من ناوأه»^(٤).

منذ ذلك التاريخ قل ذكر بلاد النوبة في المصادر العربية إلا من إشارات عابرة. ففي سنة ١٣٦٥ ذكر أن ابن أخت الملك هاجم خاله بمساعدة بنى جعد وأخيراً انتقل الملك إلى الدوشمال دقلا. وحاول المماليك عبثاً استرداد نفوذهم جنوب الدوشمال. فقد سقطت تلك المنطقة في يد بنى عكرمة وظلت في حالة من الفوضى لانعدام حكومة مركزية قوية^(٥). وصفوة القول فإنه بسقوط مملكة النوبة المسيحية في القرن الرابع عشر قد انهار السد المنيع الذي كان يحول دون دخول العرب السودان من طريق وادى النيل — وقد صادف هذا الحدث قمة الصراع بين العربان والمماليك في مصر.

(١) ابن الفرات: نفس المصدر، ج ٨ ص ٥٢ - ٥٣، ٦٩ ج ٨ ص ٨٣ - ٨٤، ٩١، ٩٢؛ ابن عبد الظاهر: تشریف ص ١٥٤ - ١٥٥.

(٢) المقرئى: السلوك ج ٢ ص ٧.

(٣) النويرى: نفس المصدر ج ٣ ورقات ٩٥ - ٩٦.

(٤) النويرى: نفس المصدر ج ٣ ورقة ٩٦.

(٥) المقرئى: السلوك ج ٧ ورقة ٤٨.

فتدفق العرب نحو الجنوب دون رقيب واندفعت أعداد أخرى عن طريق الصحراء الشرقية وقد وجدوا أن كثيراً من إخوانهم قد سبقوهم منذ قرون خلت إلى تلك الديار (إما من مصر أو عبر البحر الأحمر) حيث استقروا وتزوجوا في البعجه ونشروا الإسلام ، واستمر من لحقوا بهم في ترحالهم حتى بلغوا أرض البطانة ثم الجزيرة ، وعبر بعضهم النيل إلى كردفان . كما تابع آخرون شاطئ النيل الغربي فوادي المقدم أو وادي الملك حتى كردفان . كما تابع آخرون شاطئ النيل الغربي فوادي المقدم أو وادي الملك حتى كردفان ودارفور . فلما كثر عدد من المهاجرين قضوا على مملكة علوة في ظروف لا نعرف عنها الكثير بعد . وظلت الأغلبية من هؤلاء العرب على بداوتهم ولكن جزءاً منهم اختلط بالمجموعات المستقرة فتزوجوا منها واعطوا القوم لغتهم ودينهم وجزءاً من تقاليدهم وبدأوا بذلك سفراً جديداً في تاريخ هذه البلاد لم تكتب نهايته بعد .

دكتور يوسف فضل مسع